الحلقة التاسعة عشرة

همنجواي

ربما كان الكاتب «أرنست هيمنجواي» هو أشهر الكتاب الروائيين على مستوى العالم في القرن العشرين.. ليس بكثرة ما كتب، ولا بجمال وعظمة ذلك الذي كتبه في قصصه ورواياته.. ولكن لأنه كان يتناول العالم كله من خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما بينهما من حروب أهلية في أسبانيا.. وهو يرى بعد كل حرب من تلك الحروب التي عاشها جسداً وروحاً فظائع ما كانت تحدثه من انهيارات في النفوس، ودمار للقيم وضياع للقلوب وتوحدها مع أحلامها الصغيرة وأمانيها، ولأن السينما الأمريكية تولت بكل إمكاناتها الهائلة والمتنامية عبر الثلاثينات والأربعينات والخمسينات من القرن العشرين.. نقل ذلك الذي كتبه وجسّده إلى أبناء المعمورة في كل أصقاع الدنيا، فلا يقرؤونه سطوراً أو فصولاً في رواية.. ولكنهم يرونه ويسمعونه ويبكونه في شخوص «أبطالها» وما حدث لهم وفيهم وما انتهوا إليه في رواياته الثلاث الأولى: «ولاتزال الشمس تشرق»، و«وداع للسلاح»، و«لمن تقرع الأجراس»..؟

* * *

كانت حياة «هيمنجواي» نفسها.. وكأنها رواية، فقد ولد في آخر سنوات القرن التاسع عشر في ولاية «ميشيجن» وغاباتها وشواطئها وبراريها.. حيث كان الناس يقنصون ويصيدون ويقرؤون للكاتب الساخر مارك توين: «إن كل شيء مرح إلا أن الحرب هي التي تسبب الاختلاف».. كما قال في قصصه الأولى، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية تم تجنيده في أواخر أيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.. في وظيفة «سائق» عربة إسعاف في هيئة الصليب الأحمر الدولية في إيطاليا حيث رأى أوروبا الجميلة: فرنسا وإيطاليا وألمانيا.. وهي تقتتل وتحترق، ليصاب - في إيطاليا - بالعديد من الشظايا والجروح التي لم يشف منها إلا بعد وقت طويل، وهو الذي لم يكن جندياً على جبهات القتال.. بل «سائقاً» لعربة إسعاف، ليعود بعد ذلك إلى أرض الوطن ببقايا جروح في جسده.. والكثير منها في روحه، ليعمل مخبراً صحفياً في صحيفة «كينساس سيتي ستار»، ولكنه سرعان ما ترك الوظيفة.. وعاد إلى «باريس» ليراها - ويرى نفسه - وهي تعيش حياة اللامبالاة التي عاشتها معظم دول أوروبا الغربية ومدنها بعد الحرب.. وليكتب فيما بعد أولى أهم رواياته: «ولاتزال الشمس تشرق».. التي صورت جيل الضياع بعد الحرب الأولى، وليلحقها بعد ثلاث سنوات بروايته الثانية: «وداع للسلاح».. التي صور فيها بقايا صراع الحب والحرب، حتى لتكاد الروايتان تشكلان ثنائية تعالج أمراً واحداً.. من زواياه العديدة.

انتقل «هيمنجواي» الحائر والمشتت والذي أخذت تغلب عليه روح اللامبالاة بعد ذلك إلى أسبانيا.. ليسعده وهو الرياضي الذي يحب القنص في الأدغال، والصيد في البحار الهائجة.. منظر مصارعي الثيران الذين يجازفون بحياتهم كل يوم، فبدا له وسط تشتته وضياع معنى الحياة منه، أنه «لا يوجد أحد يعيش حياته بكاملها.. كمصارعي الثيران»!! لقد كتب عن تلك المرحلة روايته التي لم تحقق ذات النجاح السابق والكاسح: رواية «تلال أفريقيا الخضراء».. في عام ١٩٣٥م.. لتتجمع عليه خيبات الواقع الذي عاشه، وخيبات فشل روايته الإنسانية التي تقوم على مبدأ: «إن تملك أو لا تملك».. التي أعادت تقديمه كـ «لامنتم» أو رافض لحياة سقط عنها المعنى..!!

لكن الحرب الأولى والتي أصابته بدوار لم يُشفَ منه أبداً، أخذت تظهر له وتريه نفسها مجدداً في الحرب الأهلية الأسبانية.. ليدخل فيها كاتباً وطرفاً ومنظّراً تلفحه نيرانها وتبكيه صراعاتها حول العدالة الاجتماعية، وعندما انتهت الحرب بـ «المصالحة الوطنية».. كان قد انتهى من ثالث أعظم أعماله الروائية: «لمن تقرع الأجراس» عام ١٩٤٠م. والتي لا أظن أن أحداً لم يقرأها من جيل الخمسينات والستينات.. أو يشاهدها على شاشات السينما سكوب التي غزت العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م.. لتتسع شهرة هيمنجواي بإنجازاته الأدبية إلى أوسع مدى، وليغدو شخصية إنسانية ساطعة شديدة البريق.. يضاهي ببريقه وثقله الأدبي رواد الرواية الكبار من أمثال تولستوي وديكنز

وفلوبير، وهو يتماثل روائياً مع أترابه من أمثال: ألبير كامو وجان بول سارتر وألبرتو مورافيا، أما عالمنا العربي.. فقد كان آنذاك مايزال يحبو في عالم الرواية.. بعد أن شق الطريق إلى عالمها في عام ١٩١٦م الدكتور محمد حسين هيكل بروايته: «زينب»!!

* * *

لقد مضت سنوات الأربعينات الميلادية على «هيمنجواي».. وهو غارق في عمله الصحفي الذي عاد إليه بعد أيامه في أسبانيا، ورحلاته الأربع الطويلة إليها، وكتابته لروايته الخالدة «لمن تقرع الأجراس» ليستغرق في عمله.. وليستغرق بذات القدر في تأمله لـ «الإنسان» ومكابداته، ولـ «العالم» الشرير من حوله.. إلا أنه كان محاطاً برعاية زوجته الثانية «بولين»، وعمها المليونير «جساس بيفر»، الذي مكنه من الذهاب إلى أفريقيا وكتابة روايته الموسيقية الجميلة: «ثلوج كليمنجارو».. ليكتب في مطلع الخمسينيات «العجوز والبحر».. مصوراً نضال الإنسان في شخص بطل روايته العجوز الرائع: «سانتياغو».. ضد قوى الطبيعة التي لا تقهر، فهذا (العجوز) مضت به أيام وأيام.. وهو يذهب لصيد أي شيء من الأسماك ليقتات بعائدها، ولكنه كان يعود خائباً في كل مرة.. حتى قرر أن يهجر البحر والصيد لكن فتى صغيراً في عمر أحفاده أحبه وأشفق عليه وصحبه في رحلات صيده السابقة الموفقة.. أخذ بطفولته وعفويته يبث في «سانتياغو» روح «الأمل» و«المقاومة» والتصدي، وهو يذكره بـ «الشجاعة» التي تعلمها منه، والتي جعلته يقول له ذات مرة «من الممكن تدمير الإنسان ولكن ليس من الممكن

قهره».. لينطلق «سانتياغو» ومعه الطفل إلى أعماق البحر على زورقه.. فيصطاد ذلك «الحوت» الضخم، ثم يحاولان العودة به إلى الشاطئ في ملحمة نضالية رائعة.. ولكنهما عندما عادا إلى الشاطئ.. كان الحوت الضخم الذي يبلغ طوله ثلاثين متراً قد أصبح هيكلاً عظمياً..!!

كانت «العجوز والبحر» هي رابع أعظم روايات «هيمنجواي».. وهي التي نال بها جائزة «بوليتزر» الأمريكية عام ١٩٥٣م.. وهي التي رشحته إلى جانب رواياته الثلاث السابقة - فيما بعد - للحصول على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤م.

لقد أثرت «العجوز والبحر».. بعد نشرها، ثم بعد تقديم السينما الأمريكية لها.. على ملايين القراء والمشاهدين من مختلف أطياف المجتمع: من القراء العاديين.. إلى الأدباء والفنانين.. بل وإلى كبار المفكرين والساسة.. وهي تتساءل وسط نضال «سانتياغو» مع ذلك الحوت الضخم.. عن معنى الحياة: عن «الشجاعة كبديل للعنف والحرب في عالم شرير».. حتى إن الزعيم الفرنسي الراحل «شارل ديجول» صور خاتمة حياته بعد أن قدم استقالته الثالثة والأخيرة، وآثر الاعتزال وهو الذي أعاد فرنسا للفرنسيين من براثن النازيين.. بقوله: «إنني كالعجوز.. في رواية: «العجوز والبحر»، لم يعد إلا بهيكل عظمي»..!!

* * *

كان هيمنجواي «أمريكي» الولادة والنشأة في جانب كبير من حياته، ولكنه كان «أوروبي» الحياة والثقافة؛ فقد عمل في إيطاليا، وعاش في باريس، وناضل مع الأسبان في مدريد المحاصرة، وبالتأكيد فإن ثقافة أوروبا وحياتها وإلهاماتها.. كانت وماتزال.. تختلف كثيراً عن الثقافة الأمريكية وأنماطها وطبيعتها..!

ولكن العجيب أن هيمنجواي وهو الذي وجد أن معنى «الحياة» بعد طول وتنوع تجاربه فيها.. يكمن في «شجاعة» مواجهتها، مات برصاصة طائشة من بندقيته؛ خطأ على قول.. وانتحاراً على قول آخر.. فهل ضاعت «شجاعته» أم ضاع ساعتها منه معنى الحياة مجدداً..؟

إنه سؤال.. لا إجابة عليه.. فقد مات هيمنجواي.. وفقدت الرواية أحد كتابها العظام وهو في الثانية والستين من عمره، لكن ناشر أعماله «شارلز سريبنر» الذي أعاد جمع ونشر أعماله القصصية والروائية بعد عشرين عاماً ونشرها ملخصة وحسب ترتيب صدورها التاريخي.. في سفر ضخم جعل عنوانه: «مكابدات هيمنجواي» أو «المناضل هيمنجواي».. قال عنه: «إنه يستحق حياة بعد الحياة».. وهو الأمر الذي يتطلع إليه ويحلم به كل عباقرة الكتاب وعظمائهم، وقد كان «هيمنجواي» منهم.. كان في مقدمتهم.